

**فكري آل هير**

**جغرافية التوراة وحاخاماتها العرب**

**الجدور الاستشراقية- اليهودية للنظرية**

## من البداية

لا بأس.. فقد بدأ الأمر بكتاب صدر في العام ١٩٨٥ بعنوان "التوراة جاءت من جزيرة العرب" للبناني (كمال الصليبي) - المؤسس العربي الأول لنظرية جغرافية التوراة في جزيرة العرب - والذي وضع في مقدمته بأن وضع أن أساس كتابه هو:

"المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة بالحرف العبري، وأسماء أماكن تاريخية أو حالية في جنوب الحجاز وفي بلاد عسير مأخوذة إما عن قدامى الجغرافيين العرب ومنهم (الحسن الهمداني) صاحب كتاب "صفة جزيرة العرب"، و(ياقوت الحموي) صاحب "معجم البلدان"<sup>[١]</sup>.

وقد كتب الصليبي في مقدمة كتابه ما الذي حدث معه ودفعه الى تأليف كتابه ذاك، فقال:

"لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، كنت أبحث عن أسماء الأماكن ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يصل الى حوالي ٦٠٠ كلم ويعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كلم، وبالتحديد في "عسير وجنوب الحجاز". وكان أول ما تنبعت إليه أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة في التوراة، وسرعان ما تبين لي أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية [العالقة في ذهني]، أو جلها، مازال موجوداً فيها"<sup>[٢]</sup>.

إثر الضجة التي أثارها كتاب الصليبي، بدأ باحثون آخرون بتسليق الشجرة التي بدت مثمرة وسائبة، ففي العام ١٩٩١ صدر كتاب "العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود" للسوري (أحمد داوود)، والذي قام على حد قوله بدراسة التوراة دراسة تاريخية

[١]. كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة: عفيف الرزاز، الطبعة السادسة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٧. ص ١٣.

[٢]. المرجع السابق، ص ٢٧.

وجغرافية ولغوية وسكانية ومنطقية، حتى توصل الى أن جغرافية التوراة ليست في فلسطين، بل في غامد من منطقة عسير غرب الجزيرة العربية، وذلك بناء على حزمة من الوسائل الاستدلالية أهمها طبعاً دراسة الجذور اللغوية للأسماء الواردة في التوراة<sup>[١]</sup>. وبالطبع فإن أحمد داود أنكر تماماً أي صلة لما توصل إليه في كتابه بطروحات كمال الصليبي.

جاء الباحث اللبناني (فرج الله صالح ديب) بكتابه الذي صدر سنة ١٩٩٤ بعنوان "التوراة العربية واورشليم اليمينية"<sup>[٢]</sup>، منطلقاً من نفس الأساس الذي أقامه الصليبي، وبالاستناد الى أن العلماء لم يجدوا أي آثار في فلسطين تدلّ على الاحداث التاريخية في التوراة، وهذا بدوره دفع الى التساؤل: هل نبحت في المكان الخطأ؟- نعم، إن دراسة الأسماء الجغرافية في التوراة ومطابقتها مع أسماء المناطق اليمينية، يكشف على نحو وثيق بأن مسرح التوراة كان في اليمن، وليس في عسير كما قال الصليبي ولا في غامد كما قال أحمد داود.

لاحقاً سوف ينطلق فرج الله صالح ديب، من افتراض أن البحث في الجذور اللغوية لأسماء القرى والبلدان والمناطق والجبال والأنهار اللبنانية، فضلاً عن مفردات اللهجات اللبنانية لابد وأن تعكس المراحل التاريخية التي سادت في لبنان ومحيطه، وبعد فحص تلك الأسماء ومقارنتها بالأسماء ومفردات اللهجات اليمينية، توصل الى أن اليمن هي الأصل<sup>[٣]</sup>.

في نفس العام الذي صدر فيه كتاب فرج الله صالح ديب- أي عام ١٩٩٤- صدر كتاب آخر للباحث اللبناني (زياد منى) بعنوان "جغرافية التوراة مصر وبنو اسرائيل في عسير". والحقيقة أن زياد منى لم يتجاوز حدود ما جاء به الصليبي من قبل، إلا بشيء يسير لا يجعل كتابه مختلفاً. وذلك وفق ما قاله هو بأن كتابه يركز على كتاب الصليبي وأن

[١]. أحمد داود: العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، الطبعة الأولى، ١٩٩١. ص ١٢.

[٢]. فرج الله صالح ديب: التوراة العربية واورشليم اليمينية، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٤.

[٣]. فرج الله صالح ديب: اليمن هي الأصل- الجذور العربية للأسماء، الطبعة الأولى، دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٨. ص ٦.

اسهامه يندرج فحسب في إطار التهذيب العلمي لما جاء فيه<sup>[١]</sup>. كما أشار زياد منى الى اعتماده المنهج اللغوي الذي يعتمد على البحث في الجذور المشتركة للألفاظ العربية والعبرية من خلال ملاحظة ظواهر قلب الحروف واستبدالها، للتعرف على أصل الأسماء التوراتية وردها الى منطقتها الجغرافية الصحيحة.

في عام ١٩٩٦ أصدر الباحث المصري الأستاذ (أحمد عيد) كتابه بعنوان "جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة"<sup>[٢]</sup>، والذي انطلق في اتجاه الرد على كل المحاولات الصهيونية الرامية الى إثبات أن خروج بني اسرائيل كان من مصر الى فلسطين (المحتلة)، وهي المحاولات التي هدفت بالأساس الى إثبات شرعية الاحتلال الصهيوني لفلسطين، وذلك من خلال إثبات أن جزيرة العرب كانت جزء لا يتجزأ من مصر الفرعونية القديمة، وأن الأحداث التوراتية حدثت في جنوب الجزيرة العربية- وبالتحديد في اليمن.

في عام ١٩٩٩، أصدر الباحث اليمني فضل الجثام (اليافعي) كتابه الموسوم بـ "الحضور اليمني في تاريخ الشرق الأدنى: سبر في التاريخ القديم" - وقد أكد الباحث من أول سطر في كتابه بأنه معني بالكشف عن حقيقة التزييف التي مورست بحق جغرافية التوراة، وجعلها في البلاد الواقعة ما بين نهر النيل والفرات، واثبات أن شبه جزيرة العرب وبالذات إقليمها الكبير اليمن، هو موطن ومسرح أحداث التوراة. كما أكد الجثام بأن معالجته تأتي في إطار ما طرحه كمال الصليبي وزياد منى وفرج الله صالح ديب وسيد القمني وغيرهم<sup>[٣]</sup>.

[١]. زياد منى: جغرافية التوراة مصر وبنو اسرائيل في عسير، الطبعة الأولى، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩٤. ص ١٦.

[٢]. أحمد عيد: جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة، الطبعة الأولى، مركز المحروسة للبحوث والنشر والتدريب، القاهرة، ١٩٩٦.

[٣]. فضل الجثام اليافعي: الحضور اليمني في تاريخ الشرق الأدنى- سبر في التاريخ القديم، الطبعة الأولى، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٩. ص ٩.

في عام ٢٠٠٦ أصدرت جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية البحرينية كتاباً بعنوان "نداء السراة: اختطاف جغرافيا الأنبياء"<sup>[١]</sup>، والتي تقند الأقاويل التي يريدها علماء التوراة بشأن جغرافية الموطن التوراتي - جغرافية الأنبياء - بأنها في مصر وفلسطين وسوريا والعراق، وتثبت أن تلك الجغرافية ليست إلا في منطقة السراة غرب الجزيرة العربية، وهو نفس الطرح الذي صاغه كمال صليبي وأحمد داود وزيايد منى، ولكن بصيغة دينية أكثر منها تاريخية وعلمية.

منذ العام ٢٠٠٤ بدأ الباحث الفلسطيني - المقيم في القاهرة - الأستاذ (أحمد الدبش) إصدار سلسلة كتب بلغ عددها حتى عام ٢٠١٣ ثمانية كتب، تدور جميعها في فلك من سبقوه، وترتكز حول نقطة جوهرية هي إثبات أن جغرافية التوراة ليست في فلسطين، بل في اليمن، وذلك بالاعتماد على نفس المنهج اللغوي الذي يطابق بين أسماء المناطق في التوراة وأسماء المناطق اليمنية، والتي تكشف عن تطابق متين، يؤكد ذلك الاستنتاج بأن اليمن هي مسرح أحداث التوراة، في اتجاه مناهض لاتجاه من ظل يصفهم على طول خط طرحة بـ "حراس الفكر الآسن ممن يرددون ما تلقنوه في صالون المتحف ويشترون الزيف على حساب الحقيقة بثمن بخس"<sup>[٢]</sup>.

في عام ٢٠٠٨ صدر لأول مرة، كتاب الباحث العراقي المفكر العربي (فاضل الربيعي) بعنوان "فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم"، والذي توالى بعده سلسلة كتب أخرى للربيعي نفسه تصب في نفس الموضوع. ففي سفره الثقيل "فلسطين المتخيلة -

[١]. جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية: نداء السراة: اختطاف جغرافيا الأنبياء، سلسلة عندما نطق السراة، الطبعة الثانية، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، المنامة - البحرين، ٢٠٠٦.  
[٢]. أحمد الدبش: اختطاف أورشليم، محاكاة للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠١٣. ص ٢٧. بالإضافة الى أعمال الدبش الأخرى، وأهمها:

- ❖ أحمد الدبش: موسى وفرعون في جزيرة العرب، الطبعة الثانية، دار خطوات للنشر، دمشق، ٢٠٠٤.
- ❖ أحمد الدبش: كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، الطبعة الأولى، دار خطوات للنشر، ٢٠٠٥.
- ❖ أحمد الدبش: عورة نوح ولعنة الفراعنة وتلفيق الأصول، الطبعة الأولى، دار خطوات للنشر، دمشق، ٢٠٠٦.

أرض التوراة في اليمن القديم"، ينطلق المفكر العربي فاضل الربيعي من عنوان عريض وضعه لمقدمة كتابه "الهمداني يصف أرض التوراة في السراة اليمنية"، ومن أول سطر يجزم مفكرنا جزماً قاطعاً بأن السبي البابلي لليهود لم يحدث في فلسطين، وأن كل أحداث التوراة لم تحدث في فلسطين.. الى أن يعود لذكر الهمداني قائلاً:

"وفي ضوء اكتشاف الهمداني الذي أعرضه هنا- فإن الحقيقة التي لا مناص من التمعن فيها اليوم هي أن القبائل اليهودية العائدة من الأسر البابلي، هي التي أعادت بناء الهيكل في "السراة" اليمنية وليس في فلسطين، بدليل أن اليمنيين يسمون- حتى اليوم- كل آثار الأبنية القديمة (هياكل)- على حد تعبيره<sup>[١]</sup>.

توصل الربيعي الى اكتشاف أن الهمداني وصف في كتابه "صفة جزيرة العرب" الأرض نفسها التي وصفها التوراة. فوصف الأمر قائلاً:

"بدأت حكاية الاكتشاف المثير هذا، عندما كنت أعيد قراءة كتابي الهمداني (صفة جزيرة العرب، الإكليل) بعد وصولي بقليل الى هولندا، وأشد ما أثار دهشتي، أنني وجدت الهمداني يسرد أمامي أسماء الجبال والوديان والهضاب وعيون الماء في اليمن، كما لو أنه يسرد الأسماء نفسها الواردة في التوراة، والتي أكاد [أحفظها عن ظهر قلب]، وهي ذاتها وتاماً كما في نصوص التوراة دون أدنى تلاعب، ومع ذلك بدت لي نصوص الهمداني كما لو أنني قرأتها من قبل، أو كأنها تكرر الأسماء نفسها في التوراة"<sup>[٢]</sup>.

عجباً، ألم نقرأ هذه القصة قبل قليل؟! - إنها نفس القصة التي رواها لنا الصليبي.

بالنسبة لي، لا أعتقد أن ثلاثة وعشرين عاماً من صدور كتاب الصليبي فترة كافية لتبرير انتحال الربيعي لقصة اكتشافه لهذه النظرية من كتاب الصليبي حرفياً ونسبتها لنفسه،

[١]. فاضل الربيعي: فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار

الفكر للنشر، دمشق، ٢٠٠٨. ص ١٣.

[٢]. المرجع السابق، ص ١٤.

بحياة الصليبي وحضوره وبحياة كل رواد النظرية الآخرين الذين جاء الربيعي من بعدهم كلهم، إذ لا يمكن تسمية هذا الانتحال بأنه تناس أو توارد خواطر أو تخاطر بارا - سيكولوجي، فجميعنا يعلم أن الربيعي هو آخر العنقود في سلسلة من تسلقوا شجرة نظرية الصليبي، بفارق عنهم جميعاً أن الربيعي قرر أن (يكوش) على النظرية كلها وكأنه خالقها الأول.

على كل حال، تلتقي جميع الطروحات المشار إليها آنفاً عند دراسة النص التوراتي، لإثبات أن جغرافية أحداث التوراة كانت في جزيرة العرب، واختلفوا فقط في تحديد المنطقة: بين من قال في أنها كانت في عسير وغامد والسراة، ومن قال بأنها كانت في اليمن. وبالطبع فإن مغزى هذه النظرية ودافعها الأول يتمثل بشكل واضح وصريح في دحض ما تصفه جميعها بـ "افتراءات علماء التوراة وادعاءاتهم بالحق التاريخي لليهود في فلسطين"، وذلك من خلال إثبات أن مسرح أحداث التوراة ونطاقها الجغرافي كان في جزيرة العرب واليمن.

والجميع يستندون بشكل جوهري الى ما يصفونه بـ "التحليل اللغوي للجذور المشتركة بين اللغات القديمة"، وملاحظة ظواهر قلب الحروف واستبدالها للتعرف على الأسماء التوراتية في صيغتها العربية وتحديد جغرافيتها الحقيقية، والبعض منهم تحاشى تلك الظواهر واكتفى بالاعتماد على التشابه اللفظي السليم دون الدخول في متاهات قواعد القلب والاستبدال اللغوية، وإن كان البعض منهم قد لجأ الى استخدام نفس الآلية المنهجية في التعامل مع الأسماء والألفاظ الواردة في النقوش الأثرية، وذلك لإكساب طروحاتهم بعض الملامح العلمية.

والآن، هل نقف أمام نظرية واحدة أم عدة نظريات؟ وما هي المنطلقات العامة والمقولات والفروض المشتركة والمؤسسة لهذه النظرية؟

## (1)

## نظرية واحدة أم نظريات متعددة ومختلفة

تبدو نظرية جغرافية التوراة في اليمن وجزيرة العرب الى حد ما نظرية واحدة، ولكن التمتع في أعمال ومساهمات روادها من الباحثين العرب، سرعان ما يكشف عن عدة نظريات تتفق في الفروض الرئيسية وبعض المقولات المؤسسة لها، كما تتفق من الناحية المنهجية في الاعتماد على الأدوات اللغوية، لكنها جميعاً تختلف في تحديد المسرح الجغرافي الذي يفترض حسب توجه هذه النظرية أن وقائع تاريخ التوراة قد حدثت فيه.

يحدد كمال الصليبي المسرح الجغرافي الذي وقعت فيه جميع أحداث التوراة بحسب رؤيته ونتائج بحثه، "في منطقة بطول يصل الى حوالي ٦٠٠ كلم ويعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كلم، وبالتحديد في "عسير وجنوب الحجاز"<sup>[١]</sup>. ومع نفس هذا التحديد تتفق أطروحة زياد منى الذي لا تخرج جغرافية التوراة فيها عن نطاق منطقة عسير.

أما أحمد داوود، فقد أكد على أن حقيقة أحداث التوراة بأشخاصها ومواقعها، تحدثت عن عشائر بدوية آرامية، تتحرك بين مراعيها بأغنامها في بقعة ضيقة من برية شبه جزيرة العرب<sup>[٢]</sup>. وبالتحديد في غامد من منطقة عسير غرب الجزيرة العربية<sup>[٣]</sup>.

مع الصليبي، اتفق زياد منى وداوود على وضع جغرافية التوراة، في نطاق ضيق من غرب جزيرة العرب، مع تباينات دقيقة في تحديداتهم المكانية للأماكن الواردة أسمائها في التوراة، تبعاً لتباين وتعدد واختلاف طرائق استخدام وتطبيق أدواتهم اللغوية، القائمة على مقابلة الأسماء التوراتية بما يشابهها أو يماثلها بطريقة أو بأخرى في هذه المناطق التي خضعت لدراساتهم.

[١]. المرجع السابق، ص ٢٧.

[٢]. أحمد داوود: العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، مرجع سابق، ص ١٤.

[٣]. المرجع السابق، ص ١٢.



بيد أننا نجد تحديداً آخر مختلفاً عن التحديد السابق، يبدو أنه ظهر بشكل جلي عند فرج الله صالح ديب، الذي نقل مسرح أحداث التوراة من فلسطين وحواليها الى اليمن - أجزاء من اليمن، وهو التحديد الذي تبناه ودعمه كل من الباحث المصري أحمد عيد والباحث اليمني فضل الجثام، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كل من هؤلاء له رؤيته المغايرة تماماً عن رؤية غيره.

أقام فرج الله صالح ديب نظريته على عدة أسس أهمها أن اليمن شهدت في إحدى مراحل تاريخها القديم قيام دولة تعتنق الديانة اليهودية بشكل رسمي، يقصد بذلك الدولة الحميرية في عهد (ذو نواس) والصراع مع الأحباش في القرن السادس الميلادي، وقبلها قصة اللقاء الشهير بين ملكة سبأ والنبي سليمان التي وردت في التوراة والقرآن، كما يحيلنا ديب الى أدلة قديمة أو موعلة في القدم أبرزها تسمية النبي (هود)، باعتبارها الجذر الأقدم للديانة اليهودية، وطبعاً فإن هذا الاستدلال الأخير قائم فقط على المقابلة اللغوية (التشابه) بين (هود، يهود)<sup>[1]</sup>.

يأتي اسهام الباحث اليمني فضل الجثام في نطاق الضجة التي أثارها هذه النظرية واقتربها الشديد من خلال جهود الصليبي ومنى وداوود من جغرافية اليمن وتاريخه، ربما مدفوعاً بالإحساس العميق بالتهميش الذي تعرض له تاريخ اليمن في مقابل تاريخ العراق ومصر وسوريا، حيث وجد في هذه النظرية ضالته، ليكشف عن أبعاد دفيئة بشأن تأثير الحضارة اليمنية في ثقافات ومعتقدات شعوب وحضارات الشرق الأدنى (مصر، سوريا، العراق) وصولاً الى اليونان، بطريقة دفعته الى وضع بعض الأحداث والشخصيات التوراتية الكبرى وعلى رأسها النبي إبراهيم وبالتالي جغرافية حركة ارتحاله - قصة العبور التوراتية-

[1]. دوناً عن جميع رواد النظرية المذكورين في هذه الدراسة والذين اطلعت على أعمالهم، أنه الى أني لم أطلع على جهود الأستاذ فرج الله صالح ديب ولم يتسنى لي بعد الحصول على كتبه المتعلقة بهذا الموضوع، وما أورده في هذا العمل ناتج عن قراءاتي ومتابعاتي لبعض ما كُتب ونُشر عن نظريته، ويأتي تعرضي له هنا دون الاستناد الى كتبه للضرورة الأخلاقية، إذ لم يكن من الجائز تجاهل مساهمته في هذه النظرية، وهو من أهم روادها بالفعل، ومن ثم فإنني احتمل مسؤولية ما أورده وأنسبه إليه إذا لم يكن صحيحاً، ولا مسؤولية على الأستاذ فرج الله صالح ديب في كل الأحوال. (الباحث)

في نطاق الجغرافية اليمنية، جاعلاً من منطقة يافع - المنطقة التي ينتمي إليها الجاثم - بمثابة مركز لكل الأحداث والأساطير التي ضمنها عمله، وهذا بدوره لا يضعنا أمام عمل مختص بجغرافية التوراة، بل أمام محاولة لتقديم تاريخ المنطقة بما فيه تاريخ التوراة من الناحية التي يكون فيها تاريخ اليمن في المركز الذي تدور حوله وفي فلكه تواريخ الحضارات الأخرى القديمة، إذ يبدو أن الجاثم كان حين قام بدراسته هذه واقعاً تحت تأثير مزدوج لنظرية الصليبي بالنسبة لنقل جغرافية التوراة الى جزيرة العرب من جهة، وتأثير نظرية أحمد داوود بشأن سوريا الكبرى - سوريا المركز، والتي انطلق منها هذا الأخير نحو تعريب كل شيء على حد وصف البعض، وذلك من جهة أخرى.

والحقيقة، أننا نجد في عمل الجاثم بخلاف الجوانب المتعلقة بجغرافية التوراة، الكثير من الملاحظات والاستنتاجات المثيرة للانتباه، لو أنها فقط تحررت من تلك المؤثرات التي سيطرت عليها.

حينما نقف أمام عمل الباحث المصري أحمد عيد، فإننا نجد نظرية أخرى تتجاذب بعض جوانبها نظرية جغرافية التوراة للصليبي، خاصة فيما يتعلق بذلك الجانب الذي تتحدث فيه عن مصر أخرى في جزيرة العرب، وعلاقة مصر النيل ببلاد بونت، وغيرها من المسائل التاريخية التي كوّنت لدى أحمد عيد انطباعات عديدة، جعلته يتعامل مع جزيرة العرب باعتبارها امتداداً للجغرافية المصرية الفرعونية، فالقطرين اللذان وحدهما مؤسس الدولة القديمة (مينا) هما (مصر النيل ومصر جزيرة العرب)، في الوقت نفسه الذي اعتبر الباحث أن قداسة جزيرة العرب وبشكل خاص اليمن بالنسبة للمصريين القدماء ثابتة، باعتبارها الموطن الأم لحضارة مصر النيل أو ما شابه ذلك. وبناءً عليه فإن وقوع أحداث التوراة في جزيرة العرب لا يخرجها من الدائرة المصرية، وقصة التواجد الاسرائيلي/ اليهودي في مصر لعدة قرون وخروجهم منها مع موسى تظل جزءاً من تاريخ مصر الكبرى بقطريها<sup>[1]</sup>. وبلا

[1]. أنظر مثلاً كيف عالج أحمد عيد مسألة (مصر الأعلى عند أورسيوس): أحمد عيد: جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة، مرجع سابق، ص ٢٦.

أدنى شك، فإن مثل هذا الطرح لابد وأن يدعم مصداقية القصة التوراتية ولو كان ذلك بإعطائها تفسيراً جديداً.

يبدو واضحاً تأثير فكرة المركز التي عبر عنها داوود والجنّام على نظرية أحمد عيد، التي تحل فيها مصر محل سوريا واليمن، لذا فإن كثير من الأسماء التي وردت في الآثار المصرية سوف تحال في كتابه للبحث عنها في نطاق جغرافية اليمن والجزيرة العربية، ولكن على أساس مركزية مصر النيل.

في أعمال الباحث الفلسطيني أحمد الدبش، تصبح اليمن كاملة بمثابة مسرح أحداث التوراة على نحو كامل من التخصيص ودون أي استثناء، فحيثما أمكن إيجاد أسماء مناطق تقع في اليمن ومثابرة لأسماء المناطق التي وردت في التوراة، اعتبر الدبش أن هذا كافياً لتقرير وإثبات أن اليمن هي مسرح أحداث التوراة.

هناك أمر مثير للتعجب في أعمال الدبش، يتمثل في أنه يتعامل مع التوراة من الناحية التي تكون فيها فلسطين هي مسرح أحداثها، باعتبارها كومة من الأباطيل والتلفيق التي لا سند لها ولا دليل عليها، لكنه في الوقت نفسه يجد أن تلك الكومة من الأباطيل والتلفيق يصح لها من وجهة نظره -أو بالأحرى وفق قناعته- أن تنطبق كأحداث تاريخية على الجغرافية اليمنية...!!؟- وهو أيضاً حينما يصر على أن فلسطين لم تكن مسرحاً لأحداث التوراة، يصفها بقوله (بلادنا فلسطين) ويصف مملكة إسرائيل التوراتية بـ "إسرائيل المزعومة"، ثم سرعان ما يحيل القارئ إلى قناعته بأن اليمن ومحيطها هي المنطقة التي احتضنت تجربة بني إسرائيل، وأن فلسطين (الفلسطينيين الذين ورد ذكرهم في التوراة) ليسوا هم الفلسطينين الذين استوطنوا فلسطين وسميت باسمهم، والذين تصفهم كتابات المستشرقين التوراتيين ومعهم أصحاب الفكر الآسن من الباحثين العرب- على حد تعبيره- بأنهم من (شعوب البحر) الذين جاءوا غزاة واستوطنوا فلسطين، بل أن فلسطين التوراة لابد وأن تكون قرية أو قبيلة ما هنا أو هناك في جغرافية اليمن ربما ذكرها الهمداني أو اليعقوبي أو الحموي أو لم يذكرها أحد إطلاقاً، لكنها موجودة بلا شك في اليمن وفق قناعات الدبش. وحينما يقع

الدبش في مأزق تحديد هوية أولئك الفلسطينيين القدماء الذين سكنوا فلسطين، فإنه يعود مجدداً ويبحث لهم عن أصول يمنية (معينية، فينيقية)<sup>[١]</sup>.

على كل حال، فإن نظرية الدبش عن جغرافية التوراة في اليمن، تختلف على ما يبدو عن نظرية فرج الله صالح ديب وغيره، في تحديد مواقع المناطق التوراتية، نظراً لتكرار الكثير من الأسماء الجغرافية في اليمن من خلال وجود أكثر من مكان يحمل نفس الاسم في أغلب الحالات إن لم يكن جميعها.

نأتي الى نظرية المفكر العربي فاضل الربيعي، ونقول بأنها من الناحية العامة هي نفسها نظرية فرج الله ديب ونظرية أحمد الدبش، بفارق التباينات في تحديد المناطق ومسارات الأحداث التوراتية، وفي النهاية فإن الربيعي يأخذ خريطة اليمن المعاصرة لمرحلة التشطير أو خريطة ما قبل اعادة توحيد اليمن عام ١٩٩٠، والتي يظهر اليمن فيها منقسماً الى شطرين جنوبي وشمال، فيضع مملكة اسرائيل في الشطر الشمالي من اليمن، ويضع مملكة يهوذا في الشطر الجنوبي، هكذا بكل بساطة، لكنه مع ذلك نسي أن يسمي (بحر العرب) بـ "بحر اليهود" أو ما شابه - [أنظر خريطة الربيعي في الصورة رقم (١) أدناه].

بيد أن حرص الربيعي على تقديم نظرية متكاملة، جعله يبذل المزيد من الجهود، فقرر تطبيق نفس الأسلوب المتعلق بالتشابهات اللفظية والذي طبقه على الأسماء التوراتية، على الأسماء التي ترد في النقوش الآشورية، وبذلك أكسب نظريته - حسبما يعتقد - طابعاً علمياً من حيث أنها استعانت بالنقوش الأثرية، فضلاً عن تأثير النزعة المركزية على نظرية الربيعي، والذي يتضح من خلال تقديم تاريخ آخر لليمن ليس على أنها فقط هي جغرافية التوراة، بل وعلى أنها كانت دائماً تحت مطرقة التأديب العسكري الآشوري<sup>[٢]</sup>، ضارباً بالآلاف النقوش الأثرية اليمنية عرض الحائط، وكأنها لا تعني له شيئاً، ومتجاهلاً كل التشابكات

[١]. أنظر مثلاً: أحمد الدبش: كنعان وملوك بني اسرائيل في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ٢٣، ٥١، ٦٤.

[٢]. للتحقق من هذه المسألة، راجع: فاضل الربيعي: حقيقة السبي البابلي - الحملات الآشورية على الجزيرة العربية واليمن، الطبعة الثانية، جداول للنشر والترجمة، الكويت، ٢٠١٣.

والتداخلات التاريخية والجغرافية والحضارية لدول وحضارات وشعوب المنطقة في التاريخ القديم، والجهود الغزيرة التي بذلت في دراسة آثار وتاريخ المنطقة وكُرست لأجلها مئات بل والألوف من البحوث العلمية والأكاديمية.



صورة رقم (١): جغرافية التوراة كما تحددها نظرية فاضل الربيعي<sup>[١]</sup>.

خلاصة الأمر في هذا الشأن، أننا نقف أمام نظريات متعددة ومختلفة بل ومتصادمة، بشأن جغرافية التوراة في اليمن والجزيرة العربية، وليس أمام نظرية واحدة، وبالتالي فإذا أخذنا بكل الاحتمالات التي تضعها هذه النظريات بغض النظر عن النظرية الأصلية التي تقدمها التوراة، فإننا سنجد أن هناك أربعة أو خمسة مساح جغرافية مختلفة، وكل من هؤلاء يرى أن أحداث التوراة قد جرت فيها، ولا نعرف بأي نظرية منها نأخذ...!

[١]. الخريطة من: فاضل الربيعي: فلسطين المتخيلة، المجلد (١)، مرجع سابق، ص ٥٤٨ بترقيم الملف الالكتروني للكتاب.

## [2]

## المنطلقات العامة للنظرية، مقولاتها وفروضها

بعد أن تعرفنا على مسار نظرية جغرافية التوراة كما قدمها روادها العرب، وعلى مساهمات أولئك الرواد وأعمالهم، وعن أهم الفروق العامة بين طروحاتهم أيضاً، يبقى أن نقترح أكثر من منطلقات هذه النظرية والمقولات (الفروض) الرئيسية المؤسسة لها والمتفق عليها من جميع رواد النظرية، تمهيداً لإخضاعها للاختبار الموضوعي، والتحقق من مدى قدرتها على منح النظرية ما تحتاج إليه من التماسك والقدرة على الصمود في وجه أعمال المراجعة والنقد والتحقيق.

يُعرف الصليبي كتابه "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، بأنه:

"بحث في جغرافيا التوراة على أسس جديدة. وخلصته أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن. وبالتالي، فإن بني اسرائيل من شعوب العرب البائدة، أي من شعوب الجاهلية الأولى. وقد نشأت الديانة اليهودية بين ظهراينهم، ثم انتشرت من موطنها الأصلي، ومنذ وقت مبكر، الى العراق والشام ومصر وغيرها من بلاد العالم القديم"<sup>[١]</sup>.

ثم يخبرنا الصليبي عن الغرض من كتابه، بأنه يسعى الى ما وصفه بـ:

توضيح غوامض التاريخ التوراتي عن طريق إعادة النظر في خريطة التوراة. وإيصال القارئ الى استنتاج بأن يهود اليوم لا حقوق تاريخية لهم في أرض فلسطين. والصحيح أن الحقوق التاريخية للشعوب تزول بزوالها. فيهود اليوم ليسوا استمراراً تاريخياً لبني اسرائيل ليكون لهم شيء يسمى حقوق بني اسرائيل، وذلك سواء

[١]. كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١١.

كانت أرض بني إسرائيل في فلسطين أو في غيرها. وهذا قصد علمي بحث، ولا يمت الى واقع العصر الراهن بصلة، إلا بقدر ما في المقولة بطبيعة حالها من دحض للمفهوم الصهيوني المغلوط للتوراة، وهو مفهوم تتبناه فئة كبيرة من اليهود، ويتبعهم في ذلك الكثيرون من جهة المسيحيين في الغرب"<sup>[١]</sup>.

وعلى أساس ما نهضت إليه جهود الصليبي، يصف لنا الباحث اللبناني زياد منى، الهدف من كتابه "جغرافية التوراة- مصر وبنو إسرائيل في عسير"، قائلاً:

"اسهامي هذا يندرج في إطار التهذيب العلمي لجغرافية التوراة، مرتكزاً في المقام الأول على موضوعة الأستاذ الصليبي، فهذا البحث يعتبر إنكاء للنقاش حول هذا الموضوع وإضافة لأعمال الصليبي. لكني عملت قدر الإمكان على حصر بحثي ضمن إطار الجغرافيا، باحثاً من خلالها على بعض الجوانب المجهولة من تاريخ جزيرة العرب، أو التي غرقت في السيان، وليس أكثر من هذا"<sup>[٢]</sup>.

أما "أحمد داوود"، فنفهم من مقدمة كتابه "العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود"، أن جهده في هذا الكتاب يأتي مكملاً لجهوده السابقة، والتي تكشفت له فيها:

".. حقيقة الأحداث التوراتية بأشخاصها ومواقعها، فهي تتحدث عن عشائر بدوية عربية آرامية، تتحرك بين مراعيها بأغنامها في بقعة ضيقة جداً، من برية شبه الجزيرة العربية، وليس ليهود العالم اليوم أي ما من شأنه أن يمت الى أولئك الآباء العرب بأية صلة.

لقد تكشفت حقيقة التزوير الصهيوني في تفسير أحداث التوراة وجغرافيتها، وسقطت المقولات الاستعمارية الصهيونية الحديثة حول ما يدعى بـ "الشعب العبري"

[١]. المرجع السابق، ص ١٣.

[٢]. زياد منى: جغرافية التوراة- مصر وبنو إسرائيل في عسير، مرجع سابق، ص ١٦.

أو "اللغة العبرية" أو "الدولة العبرية" في تاريخنا العربي القديم، وصار لازماً علينا أن نبدأ بتصحيح تاريخنا مستخدمين كل امكاناتنا الفكرية والمؤسسية<sup>[١]</sup>.

على نفس الطريق، قرر الباحث المصري "أحمد عيد" أن يجعل مقدمة كتابه تحية موجهة لأستاذ علم الآثار (توماس. ل. طومسون)، على ما قدمه هذا الأخير من جهود في كشف حقائق التزوير التوراتي للتاريخ، قائلاً:

"تتضح خطورة المهمة التي تصدى لها طومسون<sup>[٢]</sup> في إنكارها صحة المبررات الأساسية لإيجاد دولة إسرائيل القائمة على الادعاء بعودة اليهود الى الأرض الموعودة التي نزحوا منها قبل أكثر من ألفين سنة.

لقد كشفت دراسات طومسون على أن جميع قصص التوراة تقريباً من صنع الخيال وأنها كتبت في القرن الخامس قبل الميلاد، بعد مرور (١٥٠٠) سنة من وقوع الأحداث التي ترويها، ولم يتم العثور على أي أثر لقيام مملكة إسرائيل في القرن العاشر قبل الميلاد أو على وجود مستوطنات سكنية في القدس والضفة الغربية التي يصر الإسرائيليون على تسميتها يهوذا والسامرة<sup>[٣]</sup>.

تأثراً بهذا الاتجاه، عمد الباحث اليمني "فضل الجثام" الى تقديم مساهمته هو أيضاً بوصفها:

"معالجة لجغرافية التوراة وتاريخيتها ودراسة ميثولوجيتها بالمقارنة مع معطيات الكشف الأثرية لا في البلاد الواقعة ما بين النيل والفرات فحسب، بل وما تقدمه الكشف الأثرية في شبه جزيرة العرب وبالذات في إقليمها الكبير المعروف بـ (اليمن)، واضعين نصب أعيننا ما عني به أساطين هذا الحقل: كمال الصليبي، زياد

[١]. أحمد داوود: العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، مرجع سابق، ص ١٤.

[٢]. سيكون لنا وقفة خاصة على جهود طومسون، نظراً لاحتفاء رواد نظرية جغرافية التوراة في اليمن والجزيرة العربية به، واشادتهم المتكررة بجهوده ومواقفه العلمية.

[٣]. أحمد عيد: جغرافية التوراة في جزيرة الفراعنة، مرجع سابق، ص ١١ - ١٢.



منى، فرج الله صالح ديب، سيد محمود القمني" وغيرهم ممن عنوانا بدراسة جغرافية التوراة- تاريخها، ميثولوجيتها ولغتها.. الخ"<sup>[١]</sup>.

أما الباحث الفلسطيني أحمد الدبش، فيصف كتابه "موسى وفرعون في جزيرة العرب"، قائلاً:

".. هذا الكتاب ردّ على أباطيل كثيرة [يقصد الأباطيل الصهيونية طبعاً] تنبأها، للأسف الشديد، كثير من الأكاديميين والباحثين العرب، الذين دافعوا بعناد عن جغرافية التوراة، واعتبروا أن مصر وادي النيل هي مسرح خروج موسى وقومه.. [في حين] ظلت الآثار المصرية على صمتها تجاه هذا الأمر.

وأتساءل هنا، لماذا لا نوجه الأنظار الى شبه الجزيرة العربية؟ لاسيما وقد تعذر حتى الآن إيجاد الدليل المادي في وادي النيل، وفلسطين والعراق، على الأحداث التوراتية؟ قد يفهم البعض أن هذا القول معناه اعطاء الشرعية لليهود للسيطرة على شبه الجزيرة العربية، ولكن هذا فهم خاطئ للتاريخ، واقحام للسياسة في الموضوع"<sup>[٢]</sup>.

وفي كتابه "اختطاف أورشليم" يوضح الدبش الأسباب التي أدت الى انتشار وشيوع الادعاءات الصهيونية بشأن فلسطين، قائلاً:

"أعتقد بأن أحد الأسباب الرئيسية هو أن الادعاء الصهيوني، يجري تدعيمه من خلال أساطير الكتاب المقدس، وكتابات بعض مؤرخينا من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي"<sup>[٣]</sup>.

[١]. فضل الجنام اليافعي: الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى- سير في التاريخ القديم، مرجع سابق، ص ٩.

[٢]. أحمد الدبش: موسى وفرعون في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١٧.

[٣]. أحمد الدبش: اختطاف أورشليم، مرجع سابق، ص ٩.

نفس التأطير نجده لدى "فاضل الربيعي" بقوله:

لقد سعى المخيال الاستشراقي الأوروبي في قراءته للتوراة، نحو بناء سردية جديدة خيالية توضع في خدمتها مكتشفات علم الآثار، وتتوافق مع عصر الفتوحات الاستعمارية، وهي سردية وجد فيها الغرب امكانية مدهشة للعثور على حاضنة أولى وقديمة للحضارة الأوروبية مدفونة في رمال الشرق، فعثر في الرواية عن بني اسرائيل طفولته البعيدة تلك في الشرق الغامض والملتبس، يوم كان لداود مملكة مترامية الأطراف. ولسوف يمهد هذا الانتساب المفاجئ الطريق أمام أوروبا لكي تعيد إدراج التراث اليهودي- المسيحي والحضارة الغربية في سياق استمرارية تاريخية كانت مفقودة، فلم تعد أوروبا وريثة لأثينا وحسب، بل هي استطراد لمملكة اسرائيل. وها هو تاريخ بني اسرائيل الملقق يكتشف على نحو قابل لأن يرى الغرب فيه تاريخاً خاصاً به، ضائعاً وتائهاً في شرق منسي، وقد أمكن استرداده بفضل إعادة الرواية [التوراتية] وترويجها. على أوسع نطاق وبالتلازم مع الاستيلاء على الأرض<sup>[١]</sup>.

بشكل مبسط يمكن تحديد المقولات أو الفروض العامة المشتركة بين جميع رواد هذه النظرية، على نحو ما هو آتي:

❖ تم تحريف وتزوير التاريخ التوراتي لتدعيم الادعاءات والمبررات الصهيونية بشأن الموطن الأصلي لليهود، وأرض الميعاد.. بهدف تبرير احتلال فلسطين.

❖ أثبتت البحوث والتنقيبات الأثرية على مدى أكثر من قرن من الزمان تم فيها تمشيط المنطقة الواقعة بين نهر النيل والفرات في سبيل إيجاد أدلة أثرية مادية تؤيد الرواية التوراتية والادعاءات الصهيونية، أن: "لا شيء على الأرض".

[١]. فاضل الربيعي: فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم، المجلد الأول، مرجع سابق، ص

❖ هناك تطابق كبير ومدهش بين أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية التي ترد في التوراة وبين أسماء المناطق والمواقع الجغرافية في جزيرة العرب: (عسير، غامد والسرّة، اليمن).

السؤال الذي يلح عليّ في هذه اللحظة، هو الى أي مدى يمكن اختبار هذه المقولات بصيغتها العامة هذه، والى أي مدى يمكن لهذه الفروض والمقولات أن تصمد أمام الاختبار النقدي؟! - فنحن بحاجة فعلاً الى اختبار وقياس مدى تماسك هذه النظرية، بناءً على مقولاتها وفروضها الرئيسية.

بيد أنني سأركز في المرحلة الحالية على التحقيق في مدى صدق وثبات منطلقات النظرية التي يرددها على الدوام روادها، وبالتحديد بشأن ما إذا كانت هذه النظرية تمثل اتجاهاً تحريراً وثنوياً مناهضاً لهيمنة التيار الاستشراقي - اليهودي على التاريخ والمعرفة التاريخية، أم أنها جزء من ذلك التيار؟!

## [3]

## الجذور الاستشراقية- اليهودية

## للنظرية

الأكيد حسب ما صرح به رواد هذه النظرية، هو أن جهودهم تصب في اتجاه تصحيح التاريخ العربي وتنظيفه من الشوائب التي دسها فيه علماء التاريخ والآثار التوراتيين، وتحريره من زيف التاريخ الاستشراقي الغربي الذي يخدم اليهود والغرب. فالمنطلق الرئيسي الذي أكد عليه جميع رواد نظرية جغرافية التوراة في اليمن والجزيرة العربية، هو أنه جرى تحريف وتزوير التاريخ بناء على القصة التوراتية، والتي استخدمت لتدعيم الادعاءات الصهيونية بشأن الموطن الأصلي لليهود، وأرض الميعاد.. الأمر الذي انتهى دائماً الى تبرير احتلال فلسطين.

تستوقفني هنا عبارة للأستاذ أحمد الدبش، حينما قال: "قد يفهم البعض أن هذا القول معناه اعطاء الشرعية لليهود للسيطرة على شبه الجزيرة العربية، ولكن هذا فهم خاطئ للتاريخ، واقحام للسياسة في الموضوع"<sup>١١</sup>. فبعد كل تلك التصريحات التي صرح بها جميع رواد النظرية- بما فيهم الدبش نفسه- والتي تثبت أن محرك النظرية ودافعها الأول هو السياسة وليس التاريخ، نرى يتحدث عما وصفه بأنه "اقحام للسياسة في التاريخ"!!؟.. ونحن نتساءل ترى ما الذي يدفع دارساً متخصصاً في القانون الى ترك القانون والتفرغ للكتابة والتأليف في التاريخ ما لم يكن ذلك دفاعاً عن أرضه المحتلة من قبل الصهاينة ويهود العصر، الذين لا صلة لهم بأبناء عمومته من اليهود القدماء كما صرح بذلك الصليبي منى وديب وداوود والربيعي؟!

[١]. أحمد الدبش: موسى وفرعون في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١٧.

لكي يكون الأمر واضحاً منذ البداية، ينبغي أن نلقي أولاً نظرة سريعة على ما الذي يمكن أن يعنيه بالضبط تعبير (الادعاءات الصهيونية)، وليكن ذلك من خلال ما كتبه أحد الباحثين الفلسطينيين:

"لقد دأب قادة الكيان الصهيوني السياسيون والدينيون على القول بأن أرض فلسطين هي أرض إسرائيل التاريخية، أرض آبائهم وأجدادهم، وأن هذه الأرض أرض بلا شعب لشعب بلا أرض وهي ليست لشعب من الشعوب سواهم، فهم أصحابها الشرعيون، وما عداهم غرباء لا حق لهم فيها. ويستند هذا الادعاء على مجموعة من الروايات التوراتية، بدءاً بما جاء في سفر التكوين (١٥: ١٨): "في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً. لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات". وأيضاً: "ظهر الرب - أي لإبراهيم- وقال له: إنَّ نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم". وبناءً على مثل هذه النصوص التوراتية قام قادة الصهيونية يجمعون يهود العالم في هذه الأرض بناءً على تلك الأساطير، وأخذوا يزيّفون التاريخ ويزعمون أنّ لهم حقاً تاريخياً في أرض فلسطين<sup>[١]</sup>.

ندرك من خلال هذه الصيغة، أن أي ادعاء يمكن للصهيونية أن تتبناه، لابد وأن يكون له أساساً في التوراة، وعليه فإن المواجهة التي يفترض أننا نخوض غمارها هي مواجهة مع التوراة نفسها، ذلك أن أي تزوير يمكن أن يقوم به المستشرقون لخدمة المشروع الصهيوني لابد وأن يتجه صوب تدعيم النص التوراتي وليس الى نقضه. فالتوراة وما جاء فيها هو الأساس الوحيد الذي يعتمد عليه هؤلاء الصهاينة في تبرير احتلالهم للأرض العربية، علماً بأن احتلالهم للأرض جرى بمنطق القوة السياسية والعسكرية التي كانت تملكها أوروبا في مقابل الضعف والتخلف والانقسام العربي في مواجهة هذا المشروع، وهذا ما أدى الى أن يصبح مشروع احتلال فلسطين واقعاً فعلياً منذ عام ١٩٤٨.

[١]. أنظر: عدنان عياش: دحض ادعاءات اليهود بأحقيتهم في أرض فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث عشر لمركز جيل البحث العلمي "فلسطين قضية وحق"، طرابلس - لبنان ٢-٣ ديسمبر ٢٠١٦.

ثم، هل يحتاج المحتل لأرض الغير بالقوة لمسوغات ومبررات تاريخية وأثرية لتبرير احتلاله؟!<sup>[١]</sup>

بيد أنني أعترف بلا أدنى شك بحقيقة أن هناك تزويراً وتحريفاً قامت وتقوم به المدارس التاريخية والأثرية الغربية بالفعل منذ أكثر من قرن من الزمان لصالح الرواية التوراتية، وفي المقابل نجد أن جميع رواد نظرية جغرافية التوراة في اليمن والجزيرة العربية، لم يبينوا لنا على نحو دقيق وواضح كيف جرى هذا التزوير على أسماء المناطق الجغرافية، باستثناء المحاولة التي ضمنها الباحث الفلسطيني أحمد الدبش مقدمة كتابه "كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب"<sup>[٢]</sup>. والتي أعاد سردها كما هي مرة أخرى، كتوطئة لكتابه الآخر الموسوم بـ "اختطاف أورشليم"<sup>[٣]</sup>. علماً بأنني سأعرض لمحاولة الدبش هذه بعد عدة صفحات من هنا.

أقول، لو أن رواد هذه النظرية بيّنوا لنا كيف جرى هذا التزوير ومتى، وإلى أي مدى أفضى اكتشافهم لحقيقة هذا التزوير إلى قولهم بأن أحداث التوراة لم تجري في فلسطين وحواليها، وبالتالي إلى افتراض أنها ربما جرت في مسرح جغرافي آخر، هم بأنفسهم من قاموا بالبحث عنه حتى وجدوه من خلال رصد وتتبع التشابهات اللفظية لأسماء المناطق التي ترد في التوراة. لو أنهم فعلوا ذلك لكان أجزى في إكساب النظرية طابعاً منهجياً آخر، ولكنهم لم يكونوا ليقوموا به أصلاً لسبب وجيه، وهو أن نظريتهم كما بيّن الصليبي وأيضاً الربيعة ولدت بالصدفة المزعومة على هامش اهتمامات أخرى لا علاقة لها بالموضوع، بمعنى أنها لم تولد في سياق جهود سابقة عنت بدراسة تاريخ التوراة ناهيك عن جغرافيتها، ومن ثم فإن حقيقة تزوير التاريخ من قبل المستشرقين والمؤرخين التوراتيين بناءً على الرواية التاريخية للتوراة، لم تكن طرفاً أصيلاً في الموضوع، وإنما تم توظيفها لاحقاً لتدعيم النظرية أو بالأصح لتسويغها، لاسيما وأن ملاحظة التشابهات اللفظية للأسماء والتي أقاموا عليها نظريتهم لا تعدو أن تكون في معرض البحث العلمي الجاد أكثر من مجرد قرينة، وقرينة لا ترقى إلى مستوى الدليل الأثري المادي إطلاقاً.

[١]. أحمد الدبش: كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ٧ - ٢١.

[٢]. أحمد الدبش: مرجع سابق، ص ١٣ - ٢٧.

لكن، إذا ما أخذنا بحقيقة التزوير الاستشراقي - الصهيوني، كأساس نقيم عليه افتراضاً بأن عملية التزوير هذه قد امتدت لتشمل تزوير جغرافيا التوراة، من خلال عملية واسعة أو ضيقة أو ما شابه قام فيها المستشرقون والصهاينة بتغيير أسماء المناطق والقرى والمدن والجبال والتلال والقفار الفلسطينية لتصبح مطابقة لما يرد في التوراة، فإننا سنجد هذا الافتراض ممتنعاً عن النهوض لأسباب عديدة، أولها أننا سنتساءل بشأن هذا التزوير علماً وقع بالضبط، على الأرض أم على النص التوراتي؟ - الأسهل والمعقول هو القول أن التزوير قد جرى على النص التوراتي، بمعنى أنه تم اقحام أسماء المناطق الفلسطينية في النص التوراتي، بينما كانت ترد في النص الأصلي للتوراة أسماء مناطق أخرى تقع في مكان ما غير فلسطين على وجه هذا الكوكب، ولكن هذا الاحتمال لا ينهض لأن التوراة مكتوبة منذ القرن الخامس قبل الميلاد، أو على الأقل معروفة بصيغتها الحالية - أو صيغها المتعددة الحالية - منذ أكثر من ألف سنة على أقل تقدير، وهي تنطق بأسماء تلك المناطق نفسها.

هناك افتراض ثالث، وهو أن يكون التزوير قد جرى على النص والأرض معاً، ولكن هذا الافتراض أيضاً والاحتمالات التي يمكن يحملها معه، بأنه قد جرى بطريقة ما إسقاط أحداث التاريخ التوراتي على جغرافية فلسطين زوراً، أو تغيير أسماء المناطق الفلسطينية على الأرض وفي الخريطة وفي عقول الناس لتتفق مع ما تم تزويره في التوراة، جميعها لا تنهض ولا تقوم إطلاقاً لعدم معقوليتها أولاً، ولعدم وجود ما يدل عليها أو يثبتها ثانياً.

منطق الحكمة والعقل يقول، إذا كنا نتحدث عن تزوير مسّ أسماء المناطق التي ترد في جغرافية التوراة أو جغرافية فلسطين الواقعية، فلا بد أن نعرف متى حدث هذا التزوير وكيف حدث، ومن الذي قام به وكيف قام به، وكيف جرى تثبيته وكيف يمكننا اثبات وقوعه، واثبات آثاره واستعادة الحقيقة بناءً على ذلك كله<sup>[1]</sup>.

[1]. وجهت هذا السؤال بشكل شخصي مباشر لبعض رواد النظرية: متى حدث تزوير أسماء المناطق الجغرافية في فلسطين أو في التوراة، هل بعد احتلال اليهود لفلسطين أم قبل ذلك؟ - فكان جواب أحدهم أن عملية التزوير هذه بدأت منذ الفين سنة...!!! - لم أنيس ببنت شفة، أخذت جوابه ومضيت في حال سبيلي،

لقد جرى استخدام وتوظيف فكرة التزوير الاستشراقي لجغرافية التوراة والادعاءات الصهيونية في سياق الواقع الذي تخضع فيه اليوم فلسطين العربية للاحتلال الصهيوني، لتسويغ النظرية التي تبناها هؤلاء الرواد، وهي النظرية التي ولدت أساساً نتيجة للصدفة- على حد تعبير الصليبي والربيعي- التي أدت الى ملاحظة وجود تشابهات لفظية- ولا أقول لغوية- بين أسماء مناطق التوراة وأسماء المناطق التي تقع في نطاقات جغرافية قائمة بالفعل. وبدلاً من أن تفقد تلك الصدفة المزعومة الى خلق اتجاه منهجي للبحث عن تفسيرات علمية وموضوعية لدلالة هذه التشابهات، والبحث عما يمكن أن تساعدنا به في سبيل معرفة أكثر بتاريخ وتراث المنطقة العربية، جرى تأسيس نظرية تنقل أحداث التوراة المروية منذ ألفين سنة على الأقل من جغرافيتها المنصوص عليها الى جغرافية أخرى يدعيها رواد هذه النظرية، بل والبعض منهم يجزمون بها جزمًا مطلقاً ولا يتركون أي مجال لإمكانية أن يكونوا مخطئين بشكل أو بآخر<sup>[1]</sup>، وعند أي اعتراض من أي نوع يعرض عليهم، يكون جوابهم بأنه اعتراض يهدف الى تسييس الموضوع أو اقحام للسياسة في التاريخ، أو بأنه دفاع عن المشروع الاستشراقي- الصهيوني.

لم يكن هناك خيار أمام رواد نظرية جغرافية التوراة في اليمن وجزيرة العرب، سوى الالتصاق بفكرة التزوير الذي يقوم به المستشرقين ومؤرخي التوراة الغرب واليهود، لتسويغ نظريتهم وجعلها في موضع القبول، ولكي تكون كذلك فلا بد أن تكون هذه النظرية من وجهة نظرهم بمثابة توجه حقيقي لكشف الزيف وتحرير عقولنا وتاريخنا من الادعاءات الصهيونية

---

محاولاً إعادة حاجباي الى مكانهما الصحيح بعد أن رفعتهما الدهشة ثلاثة أمتار فوق مستوى سطح رأسي. (الباحث)

[1]. الثابت هو أن علم التاريخ يظل معرض أقوال وآراء ونظريات وليس معرض حقائق مهما توفرت الأدلة المادية، إذ أن علماء التاريخ وعلماء الآثار يتعاملون مع نصوص ومواد أثرية صنعتها وكتبها أيادي بشرية تحت املاءات وظروف خاصة بحيث لا يمكن تبراة مضموناتهما من الانحياز للذات والتطرف لها، كما أن المؤرخ والباحث الأثري نفسه يطلق آرائه وقناعاته دون الجزم بها احتراماً لحقيقة تعدد الآراء وتنوعها في المسألة الواحدة، وإفساح المجال للآخرين ليدلوا بدلوهم، ولكون الدراسات التاريخية عموماً واقعة دائماً تحت تأثير تنازعات وتناقضات الذاتية والموضوعية التي يقع فيها المؤرخ. (الباحث).



القائمة على الرواية التوراتية، وهذا ما قالوه بالفعل، كما سبق وأن عرضت ذلك آنفاً عند الحديث عن منطلقات النظرية.

أصل الى جوهر الموضوع، وأتساءل الى أي مدى يمكن اعتبار هذه النظرية نتاجاً حراً ومستقلاً عن أي جهد استشراقي - غربي - يهودي - توراتي؟

لابد أن نبحث عن الجذور التاريخية والمعرفية لهذه النظرية، إذ لا يعقل أن تكون الصدفة هي السبب فيما نحن مشغولون به الآن على هذا النحو، فلا شيء يحدث بالصدفة ولا شيء يمكن اعتبار أن حدوثه قد جرى عبثاً.

أحد رواد نظريتنا هذه وفّر علي القيام ببحث جانبي في هذا الشأن، وقدم لنا الحقيقة على طبق من فضة، إذ ينبغي لهذه المعلومة بالذات أن تحظى بمصادقيتها لدى قرائي على أساس: "وشهد شاهد من أهلها". فقد قام بذلك، الباحث الفلسطيني أحمد الدبش، وبين الجذور الاستشراقية - اليهودية لنظرية جغرافية التوراة في اليمن والجزيرة العربية، قائلاً:

"ومن الجدير بالانتباه أن أطروحات الباحثين التي تعد عسير، أو اليمن، أو الجزيرة العربية عموماً، هي مكان قصة موسى مع إلهه يهوه، وموضع خروج اليهود من مصر العربية، ليست جديدة، فقد سبق إليها العديد من الباحثين المستشرقين الثقات. ففي عام ١٩٠٧، بدأت أكاديمية فيينا، بإصدار مؤلف المستشرق النمساوي (Alois Musil) بعنوان "Arabia Petraea" في أربعة أجزاء، وقد كتبه أثناء زيارته لمواقع التاريخ التوراتي، أملاً في أن يفهم التوراة من خلال الطبيعة التي ولدت فيها، وأدرك (Alois Musil) في حينه، وقبل غيره، أن سيناء التوراتية ليست هي سيناء الحالية، وأن الآراء الشائعة حول موسى، وحول الديانة اليهودية ليست صحيحة"<sup>[١]</sup>.

يتابع أحمد الدبش، توضيح الجذور الاستشراقية - اليهودية لهذه النظرية، ما أنقله على طوله من كتابه نقلاً حرفياً، قائلاً:

[١]. أحمد الدبش: موسى وفرعون في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١٢.

"وعلى هذا المنوال، ذهب المستشرق "مرجليوث" الى أن الوطن الأصلي لبني إسرائيل لم يكن في شبه جزيرة سيناء، بل كان ببلاد اليمن التي خرجت منها أمم كثيرة منذ أقدم الأزمنة التاريخية، ويستدل على رأيه هذا ببضعة أدلة منها أن عادات بني إسرائيل وأخلاقهم الاجتماعية في عصورهم الأولى، كانت قريبة من أخلاق العرب في الجاهلية، فهناك شبهة عظيمة بين بعض العادات الاجتماعية والأخلاق الدينية عند أهل سبأ وبني إسرائيل. ومنها أيضاً وجود ألفاظ مشتركة بين اللغتين السبئية والعبرية، وزيادة على المادة اللغوية العبرية التي تشبه العربية شبهة، نجد كثيراً من أسماء الأعلام العبرية القديمة شائعة الاستعمال عند العرب في الجاهلية. وكانت بطون كلب اليهودية، من أعظم البطون اليهودية التي تسكن في جنوب فلسطين، وكذلك نجد بين القبائل العربية من يلقب بهذا اللقب، مثل القبائل الكلبية العربية في شمال جزيرة العرب، والتي نسبت الى العصبية اليمنية. ثم انظر الى أسماء الأعلام الأخرى التي تدل على قوة الشبه بين اللغتين، وعظم التقارب في الميول والعقلية بين الشعبين، فمن هذه الأعلام ما يأتي: حفني، علي، عبد الله، حمول، الغادي، السعد، عفراء، ويوجد كثير من هذه الأعلام في النقوش السبئية والثمودية.

وقد ألفَ المستشرق الألماني "هوغو ونكلر" (Hugo Winckler) رسالته المثيرة للجدل التي أسماها "مصري وملوفا ومعين"، وبين فيها أن (مصري) هي أرض عربية شمالية، وأن مصر المذكورة في التوراة هي في بلاد العرب، لا في أفريقية. وأن عبارة "هاكرهم مصريت" (Hagar Ham- Misrith) بمعنى "هاجر المصرية"، لا يعني "هاجر" من مصر المعروفة، بل من مصر العربية، أي من هذه المقاطعة التي نتحدث عنها "معن مصرن" وأن القصص الواردة في التوراة عن "مصر" وعن "فرعون"، هو قصص يخص هذه المقاطعة العربية، وملكها العربي.

ويذكر القصاص العالمي "ه. ج. ويلز" تعليقاً على قصة خروج موسى وقومه من مصر، أنه: "... في الإمكان ألا تكون مصر هي أرض الأسر - واسمها في

العبرانية مصرًا، وإنما مسريًا في شمال بلاد العرب، على الجانب المقابل من البحر الأحمر<sup>[١]</sup>.

إذن، فنظرية جغرافية التوراة في اليمن وجزيرة العرب، لها جذورها العريقة في التراث الاستشراقي ومن المستشرقين اليهود أنفسهم، وليس أنها نظرية ثورية خارجة عن نطاق ما قدمه الاستشراق، وهذا بإقرار أحد روادها العرب المعاصرين، وهذا بحد ذاته ما يتناقض مع المنطلق والهدف الرئيسي من هذه النظرية الذي قالوا به روادها، بأنها تتجه إلى تحرير التاريخ العربي من سيطرة الفكر الاستشراقي. ما يدلنا على هذا التناقض هو أن "الدبش" عندما نوه إلى أن هذه النظرية ليست جديدة، وأن هناك من المستشرقين من تبناها من قبل، وصف هؤلاء المستشرقين بـ "الثقات"!!.. وهو توصيف يحذرنا من الخلط بين نوعين من المستشرقين: ثقات وغير ثقات.

لنتوقف عند هذه الرؤية التصنيفية للمستشرقين، والتي تدفعنا بحد إلى التحقق من حقيقة المستشرقين الذين استشهد "الدبش" بأقوالهم ووصفهم بأنهم ثقات، لعلنا نكتشف المعيار الذي يمكننا من التمييز بين الثقات وغير الثقات من المستشرقين، مع أنه لا يوجد مستشرق على الإطلاق يمكن اعتباره ثقة تحت أي معيار، طالما والجميع يخضعون لمعايير النقد العلمية على حد سواء. فالاستشهاد الأول كان برأي منسوب للمستشرق التشيكي - النمساوي "الويس موسيل" (Alois Musil) (١٨٦٨ - ١٩٤٤)<sup>[٢]</sup>.

يعطينا أحد الباحثين العرب ترجمة كافية لهذا المستشرق:

"الويس موسيل، أحد مستشقي الإمبراطورية النمساوية المجرية، أستاذ جامعي وأحد مشاهير الرحالة الأوروبيين الذين قاموا بزيارة الجزيرة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وهو من اكتشف في عام ١٨٩٨ قصور بني أمية

[١]. المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣.

[٢]. جاء استشهاد أحمد الدبش بهذا المستشرق نقلاً من كتاب توفيق سليمان "تقد النظرية السامية - أسطورة النظرية السامية"، وهذا الكتاب لم يتوفر لدي للتحقق من سياق الاقتباس.

الصحراوية، تلقى تعليمه وتخصص في اللاهوت، وكان على اطلاع كبير باللغة العبرية. كانت أهداف وجهود "موسيل" تصب في سد النقص الكبير في المعلومات المتعلقة بـ "العهد القديم- التوراة"، وهذا بدوره ما دفعه للقيام برحلات في مناطق "جغرافية التوراة": فلسطين وبلاد الشام وشمال جزيرة العرب. وقد تزامنت اهتمامات "موسيل" بالمنطقة العربية مع بروز تطلعات الدول الأوروبية الاستعمارية في المنطقة العربية، فكان جزءاً كبيراً من أعماله مكرساً لخدمة مصالح الامبراطورية النمساوية وأهدافها الاستعمارية في المنطقة، ويفضل جهوده تم رسم واحدة من أهم الخرائط التفصيلية لجغرافية التوراة، في الوقت الذي كانت بريطانيا تحرص بشدة على متابعة نتائج دراسات ورحلات "موسيل"، والذي بدوره كان يرسل التقارير الى وزارة الخارجية البريطانية التي كان عليها آنذاك "إدوارد جري". كانت جهود "موسيل" ترصد الجغرافيا والآثار والسكان والقبائل والعادات والتقاليد والأزياء والأصول والأنساب، وكل شيء يتعلق بالمنطقة التي جرت فيها رحلاته - أي منطقة جغرافية التوراة<sup>[1]</sup>.

وبحسب الترجمة التي اعتمدت عليها في التعريف بـ "ألويس موسيل"، فقد سجل هذا المستشرق موافقاً جريئة ضد السياسات الأوروبية في المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن هذا لا يلغي حقيقة أن جهوده كلها كانت مكرسة لخدمة التيار التوراتي بتوجهاته الرئيسية الثلاثة: اللاهوتي، التاريخي- الجغرافي، الامبريالي.

الاستشهاد الثاني الذي قدمه لنا أحمد الدبش، كان بما ذهب إليه المستشرق "مرجليوث"<sup>[2]</sup>، باعتباره من المستشرقين النقات على حد وصفه.

[1]. سعيد السعيد: ألويس موسيل، حياة بين العلم والسياسة، ورقة عمل مقدمة للندوة العلمية عن الرحالة التشيكي "ألويس موسيل"، جامعة تشارلز، براغ، يونيو ٢٠٠٨.

[2]. ديفيد صموئيل مرجليوث (1858 - 1940) (David Samuel Margoliouth)، مستشرق انجليزي، بدت عنايته بالدراسات العربية والسامية بعد أن عُيِّن أستاذاً في جامعة أكسفورد سنة ١٨٨٩، كتب بحثاً عن أوراق البردي العربية في مكتبة بودلي بأوكسفورد ١٨٩٣، وترجم قسماً كبيراً من تفسير البيضاوي إلى الإنجليزية سنة ١٨٩٤م كما نشر رسائل أبي العلاء المعري سنة ١٨٩٨. وفي سنة ١٩٠٥ بدأ بنشر دراساته عن الإسلام، وذلك بكتاب (محمد ونشأة الإسلام) ثم كتاب (الإسلام) سنة ١٩١١، ثم نشر

بيد أن الثابت هنا، هو أصول "مرجليوث" اليهودية، بفارق أن أسرته تحولت الى المسيحية الأنغليكانية، وهو نفسه عمل قساً في كنيستها. وكمستشرق، اشتهر "مرجليوث" بمنهجه التشكيكي الذي طبقه في معظم دراساته وأبحاثه التي خصصها في التاريخ العربي. فعلى سبيل المثال، فهو من أوائل من أثار مسألة الشك في الشعر الجاهلي في العصر الحديث، من خلال البحث الذي نشره في مجلة (الجامعة الآسيوية الملكية) الإنجليزية بعنوان: (The Original Arabic Poetry)، والمترجم في كتاب "أصول الشعر الجاهلي"، وفيه يعتقد أن ما وصل إليه في بحثه "كاف لوضع كل ما يُقال إنه شعر جاهلي وبما فيه أيضاً كل الشعر السابق على العهد الأموي موضع الشك"<sup>[1]</sup>.

الجدير بالذكر، أن الأستاذ الدبش قد اقتبس رأي "مرجليوث" من كتاب "تاريخ اللغات السامية" للمستشرق اليهودي الشهير "اسرائيل ولفنسون"، الذي تعرض في كتابه لرأي مرجليوث بشأن أن بني اسرائيل نزحوا من اليمن، واعتبره مما لا يستند الى أي دليل، إذ يقول "ولفنسون":

"وليس في الأدلة التي نكرها مرجليوث لتأييد رأيه دليل تاريخي واحد يمكن أن يعول عليه، بل هي أدلة تخيلية تصيدها تصيداً، وهي مع ذلك لا تجديه نفعاً لأنها لا تنطبق على بني اسرائيل والسبئيين وحدهم، بل تشمل جميع الأمم السامية.. فهناك تشابه بين لغة بني اسرائيل وعاداتهم وأخلاقهم وبين لغة بابل وعاداتها وأخلاقها، فهل نقول بأن بني اسرائيل من أصل بابلي؟! - هذا ينقض نظرية مرجليوث بالنظرية نفسها. وبالتالي فإن ترجيح أن بني اسرائيل نزحوا من اليمن أمر لا يمكن الاطمئنان

محاضرات كان قد ألقاها عن تطوّر الإسلام في بدايته سنة ١٩١٤، والعلاقات بين العرب واليهود سنة ١٩٢٤، كما نشر مجموعة من الكتب التراثية المتنوعة، وقد اختاره المجمع العلمي العربي في دمشق عضوا مراسلا عند نشأته في سنة ١٩٢٠. ومعظم كتاباته اتسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، الطبعة الثالثة "منقحة ومزيدة"، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ١٩٩٣. ص ٥٧٦.

[١]. ديفيد صمويل مرجليوث: أصول الشعر العربي، ترجمة وتعليق ودراسة: إبراهيم عوض، دار الفردوس، أسيوط- مصر، ٢٠٠٦. ص ١٠٧.

إليه، لأن الشعوب العبرية لم توجد في كل العصور التاريخية إلا في شمال الجزيرة العربية على أطراف فلسطين<sup>[١]</sup>.

يبدو واضحاً أن معارضة "ولفنسون" لرأي "مرجليوث"، هو المعيار الذي اعتمده أحمد الدبش في اعتبار هذا الأخير من المستشرقين النقات.

أما الاستشهاد الثالث، فكان بـ المستشرق الألماني "هوغو ونكلر" فكان نقلاً عن "جواد علي"، ويكفي أن هذا المستشرق ينتمي إلى حركة الاستشراق الألمانية، التي وصفها أحمد الدبش نفسه، بقوله:

"لقد لعب الاستشراق الألماني دوراً مهماً وبارزاً في التركيز على فلسطين، واكتشاف آثارها ومقارنة تلك الآثار بما ورد في التوراة، ومن أشهر المستشرقين الألمان في هذا المجال المدعو "كارستن نييور" و"أولريش زيتسن" و"لودفيغ موركهارت". ولعلها من أخطر حركات الاستشراق الغربية عموماً لأن الجامعات الألمانية لا تدرس إلا علم الآثار التوراتي، الذي يتطلب دراسة اللغة العبرية لمدة عشر سنوات"<sup>[٢]</sup>.

الاستشهاد الرابع، اقتبسه الدبش من كتاب "معالم تاريخ الإنسانية" لـ "ه. ج. ويلز"، ويكفي أن نقرأ في نفس الصفحة التي وقع منها اقتباس الدبش، ما يلي:

"ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان، فمما لا ريب فيه أن ذلك القطر - يقصد فلسطين - الذي فتحه تغير تغيراً عظيماً منذ أيام أسطورة "الميعاد" الذي وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون"<sup>[٣]</sup>.

[١]. إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩.

[٢]. أحمد الدبش: كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١٣ - ١٤.

[٣]. ه. ج. ويلز : معالم تاريخ الإنسانية، المجلد الثاني - في تاريخ الإغريق والرومان ومن عاصروهما، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣. ص ١٣.

رأي "ويلز" هذا يشير بوضوح الى أنه ينتمي الى تيار المؤرخين التوراتيين الذين تبنوا نظرية "الغزو" كأساس لوصول بني اسرائيل الى فلسطين، وهي رواية العهد القديم (التوراة) بالطبع، وقد تزعم هذا التيار - كما أوضح الدبش - المستشرق اليهودي "وليم اولبرايت"<sup>[١]</sup>. والمعروف عن هذا الأخير أنه من أكثر المستشرقين تعصباً للتوراة، فضلاً عن كونه مؤسس الفرع الاسرائيلي لقسم دراسات التاريخ التوراتي في المنطقة.

وهكذا، فإن المستشرقين الذين استشهد بهم الدبش، يظلون على كل حال من رموز الاستشراق التوراتي، ومعظم أعمالهم تقوم على اثبات الرواية التوراتية، ويؤمنون بأن مملكة اسرائيل قامت في فلسطين، ومن ثم فتوصيف الدبش لهم بأنهم من "المستشرقين الثقافات" لا أساس له ولا معيار، سوى أنه وجد في اقتصاص آرائهم من سياقاتها ما يدعم به نظريته، ودفاعه عنهم ليس إلا دفاعاً عن نظريتهم التي يتبناها هو والصليبي وداوود ومنى وديب وعيد وغيرهم.

بيد أنني وبلا أدنى شك أتفق مع الأستاذ الدبش على أن نظرية جغرافية التوراة في اليمن والجزيرة العربية قد ولدت ونشأت في حضان الاستشراق التوراتي - اليهودي، وهذا بحد ذاته يجعلنا نعيد النظر في امكانية تصديق ما رواه لنا كل من الصليبي والريبي بشأن الصدفة التي كانت السبب الرئيسي في اكتشاف وملاحظة التشابهات اللفظية بين أسماء المناطق التوراتية ومناطق اليمن والجزيرة العربية التي حددها لنا.

لو حاولنا تصديق وقوع الأمر بالصدفة، سنجد أمامنا عقبة أخرى تحول دون ذلك، أقصد بذلك أن حفظ أسماء المناطق الجغرافية الواردة في التوراة عن ظهر قلب كما صرح بذلك الصليبي والريبي لن يكون هو الآخر نتاج للصدفة، لأن هذه النظرية بحد ذاتها كانت قد ولدت ونمت وتغذت وشبت في عقول وأعمال وجهود المستشرقين التوراتيين - كما تبين آنفاً.

[١]. أحمد الدبش: كنعان وملوك بني اسرائيل في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ٢٣.

بيد أن الأمر كما تكشف لي لم يقتصر على مجرد ولادة هذه النظرية كفكرة في حضان مدرسة الاستشراق التوراتية فحسب، بل اتضح بشكل أكيد أن المنهج نفسه والأدوات نفسها المتعلقة بدراسة الألفاظ والأسماء الجغرافية وتشابهاتها وتحولاتها اللغوية، قد استخدمت بالفعل من قبل المستشرقين التوراتيين عندما بدأوا بالبحث عن المناطق الواردة أسمائها في التوراة على الأرض الفلسطينية بشكل عملي، في نطاق العملية التي قاموا فيها بتزوير الجغرافية التوراتية وإصاقها زوراً وبهتاناً على أرض فلسطين - كما يدعي أصحابنا رواد هذه النظرية من الباحثين العرب.

لنتوقف قليلاً عند المحاولة التي قام بها الباحث الفلسطيني أحمد الدبش، لتوضيح كيف جرت عملية تزوير أسماء المناطق الفلسطينية لتصبح مطابقة لما هي في التوراة. فقد بدأت هذه العملية قبل (١٨٠٠) سنة، يقول الدبش:

"في وقت مبكر يعود إلى القرن الثاني الميلادي بدأ الحجاج المسيحيون الأوائل القادمون من مختلف أجزاء الإمبراطورية الرومانية يصلون فلسطين ليعادوا وتعقب خطوات يسوع وحوارييه. وفي أثناء طوافهم في أرجاء البلاد بمجموعات صغيرة كان هؤلاء يتوقفون للصلاة والتأمل في الأماكن التي كان سكانها المحليون يرشدونهم إليها على أنها مواقع نشاط يسوع وآلامه. ولكن الحج المسيحي بدأ، مع حلول القرن الثاني، يأخذ بالضرورة طابع التنقيب الأثري لأن المشهد كان قد بات شديد الاختلاف عما ورد في العهد القديم والجديد.

كانت النتيجة نوعاً جديداً من الحج معادياً لأهل البلاد ومسوغاً لاستعمارها وتحولها إلى أرض التوراة". كانت فلسطين تتعرض لعملية نقل وتحويل زمانية تقضي إلى جعل الماضي التوراتي حقيقة، إلا أن التوجه المنظم والهادف والمرتبط بالدوائر الاستعمارية والتوجهات اليهودية راح يتشكل في القرون السابقة الأخيرة وخاصة بعد انتهاء الحروب الصليبية والتقلبات التي حدثت في أوروبا<sup>[١]</sup>.

[١]. المرجع السابق، ص ٧ - ٨.



يفترض الدبش أن التزوير الذي وقع على أرض فلسطين قد بدأ مع بداية انتشار العقيدة المسيحية في القرن الثاني للميلاد، وهذا أمر في الحقيقة لم أستطع تفسيره، أو أن أجد له تفسيراً.

الثابت لدينا، هو أن المسيحية أصلاً نشأت هنا في منطقتنا العربية وبالتحديد في فلسطين وبلاد الشام ومصر، وجميع معتنقيها في ذلك الوقت من شعوب المنطقة، وكانت الأغلبية المسيحية في العالم القديم آنذاك هي شعوب المنطقة، والمسيحية بحد ذاتها تستند من الناحية المرجعية إلى العهد القديم (التوراة) بالإضافة إلى العهد الجديد (الانجيل)، فكيف ننسب إلى الحجاج القادمين من أطراف الامبراطورية الرومانية- أو لنقل من أوروبا- أنهم قاموا بعملية التزوير تلك، أي تغيير أسماء مناطق فلسطين على غير ما هي واردة عليه في العهد القديم، أو على نحو ما هي واردة عليه أصلاً. فإذا كان أهل المنطقة وشعوبها قد رأوا في تلك الأسماء الواردة في التوراة خلافاً لما هو ثابت عندهم على الأرض لبحثوا عن موطن التوراة، أو لعلموا به أساساً وأخبرونا لأن عقيدتهم قائمة بالأساس على شرط الايمان بما جاء في التوراة التي كانت قد كتبت قبل ذلك العهد بحوالي سبعة قرون، والايمان المسيحي قائم بالأساس على اعتبار فلسطين بمثابة الأرض المقدسة كما أخبرهم بذلك العهد الجديد (الانجيل). فبغض النظر عن مدى ايمانهم أو اطلاعهم على التوراة، فما هو منصوص عليه في العهد الجديد كافي بالنسبة لهم لتحل فلسطين في نفوسهم هذا المحل، كأرض مقدسة.

في الحقيقة أن هذه النظرية- نظرية الصليبي ورفاقه- تطلب منا أن نتبنى واحداً من أسخف الافتراضات، وهو أن الملايين من اليهود والمسيحيين على مدى ألفين عام وحتى اليوم، عاشوا وآمنوا وهم يجهلون بحقيقة أين تقع أرضهم المقدسة!؟

يبدو أن عملية التزوير الذي أراد أن يبينها لنا أحمد الدبش، لم تحظ باتصال زمني يكسبها طابع الاستمرارية، إذ ينقل الدبش من القرن الثاني الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ليعرض لنا الحلقة الأهم والأكبر من حلقات تزوير جغرافية التوراة وتلفيقها على أرض فلسطين زوراً وبهتاناً، من حيث لم يجد أي مجال لمعرفة كيف جرت تلك العملية

وكيف استمرت وإلى أين آلت خلال سبعة عشر قرناً من التاريخ، وهي الفترة التي لم يكن فيها لأي إسرائيل أو صهيونية وجود يذكر الإطلاق.

يقول الأستاذ أحمد الدبش:

"شهد القرن التاسع عشر أكبر الحملات الاستشراقية الآثارية.. فقد أخذت تقنيات هذه الجغرافيا الكتابية الحديثة شكلها مع الأعمال الاستكشافية التي قام بها في عام ١٨٣٨ كل من "ادوارد روبنسون وإيلي سميث"، فخلال رحلة من السويس إلى بيروت دامت ثلاثة أشهر، اهتموا "روبنسون وسميث" إلى العشرات من المواقع الكتابية التي كانت مغلقة ومتناثرة في أرجاء المسرح القديم للبلاد، وقد وصفا التحولات اللغوية التي أفضت، باعتقادهما، إلى قلب أسماء الأماكن العبرية القديمة إلى أسماء عربية حديثة"<sup>[١]</sup>.

هذا الكلام خطير للغاية، وخصوصاً الجزء الأخير منه، والذي تعمدت تضليله ل يبدو واضحاً، إذ نفهم من هذا النص المميز والصريح، أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن المستشرقين بحثوا بطرق عملية، أي نزلوا إلى الأرض وتجولوا فيها وبحثوا ونقبوا بشكل فعلي بحثاً عن المواقع الجغرافية التي ترد في التوراة، وبالتحديد في المنطقة الممتدة من السويس في مصر إلى بيروت في لبنان، بمعنى أن المنطقة المدروسة شملت كامل أرض فلسطين، واهتدوا إلى العشرات من المواقع الكتابية- التوراتية- التي كانت مغلقة ومتناثرة في أرجاء المسرح القديم للتوراة.

الأمر الثاني: يتعلق بالكيفية التي اهتموا بها هؤلاء المستشرقين إلى تلك المواقع التوراتية التي اكتشفوها، وهي ما وصفوه بـ [التحولات اللغوية]، التي أدت إلى [قلب أسماء الأماكن العبرية القديمة إلى أسماء عربية حديثة]!!..

[١]. المرجع السابق، ص ٨.

يجب أن نراجع ما قاله الصليبي وجميع رواد نظرية جغرافية التوراة في اليمن وجزيرة العرب، بشأن منهجهم اللغوي، أو الكيفية التي طبقوها لتعيين جغرافية التوراة على أساس التشابهات اللفظية، لأنني على ثقة كاملة، بأنهم تبنا نفس هذه الفكرة، فكرة التحولات اللغوية وقلب الأسماء والحروف وما إلى ذلك. فقد أكد كمال الصليبي على أن أساس كتابه هو "المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة في التوراة بالحرف العبري، وأسماء أماكن أخرى تاريخية أو حالية"<sup>[١]</sup> تنتمي إلى دائرة اللغة العربية بالطبع لأنها مأخوذة من المعاجم العربية.

كما عبر الصليبي عن فكرة [التحولات اللغوية] الاستشراقية تلك، بوضوح جلي وكأنه كان يشرح لنا الأساس الذي عمل عليه المستشرقان "ادوارد روبنسون وإيلي سميث" في الاهتمام إلى المناطق التوراتية في فلسطين، أثناء رحلتهم البحثية التي جرت سنة ١٨٣٨، وذلك "عندما تبين للصليبي بما لا يقبل الشك وجود معظم الأسماء التوراتية بشكلها الأصلي، أو بشكل معرب، في بلاد السراة وما يليها من جبال تهامة ووهادها غرباً.. الخ"<sup>[٢]</sup>. فالصليبي يفترض حدوث التحولات اللغوية التي أشار إليها هذان المستشرقان، فالأسماء كانت عبرية وبسبب عوامل التاريخ وخلافه تعرضت للتعريب، أي تم تحويلها إلى صياغات لفظية عربية، مع الاحتفاظ بشيء من أصلها العبري، وهذا لأن العبرية والعربية من مجموعة لغوية واحدة. بل أن الصليبي يستخدم نفس المصطلح [التحولات]، تلك التي تجري على الكلمات بين لغتين من أصل مشترك، ويشرحه لنا في معرض شرحه للعلاقة بين العربية والعبرية التوراتية، قائلاً:

"هناك جنور كثيرة مشتركة بين العبرية التوراتية والعربية، وذلك دون تغيير في

الأحرف في بعض الأحيان، ومع (تحول) في الأحرف في أحيان أخرى. و[التحولات]

في الأحرف التي يقرأها علماء اللغات السامية بين اللغتين هي الآتية:..."<sup>[٣]</sup>.

[١]. كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١٣.

[٢]. المرجع السابق، ص ١٨.

[٣]. المرجع السابق، ص ٢١.

يبين لنا تلميذ الصليبي ومواطنه "زياد منى" طبيعة تلك [التحولات اللغوية]، في سياق تأكيده على "إن إدراك مدى ورود ظاهرة القلب والاستبدال بين اللغتين العربية والعبرية يعتبر أحد الأسس التي ارتكزت عليها دراسته في موضوع جغرافية التوراة التي نطق بها الصليبي"<sup>[١]</sup>.

أما فرج الله صالح ديب، فتتمثل منهجيته بـ "المقابلة اللغوية وتطويع أحرف التصويت في الأسماء للوصول إلى جذر أو صيغة لفظية يمكن إقرانها بأحد المواقع الجغرافية في اليمن"<sup>[٢]</sup>.

وبالمثل، يبين لنا الأستاذ "أحمد داوود" أنه يمكن الاستفادة من هذه المنهجية - منهجية التحولات اللغوية - التي جرت على أسماء المناطق الجغرافية التوراتية، ولكن فيما بين اللغة الكلدانية واللغة العربية، أي بعيداً عن العبرية، قائلاً:

أما من الناحية اللغوية العربية القديمة فقد اعتمدنا فيها القاموس الكلداني للمطران يعقوب أوجيه منا، لأن الكلدانية - وهي نفسها السريانية - هي العربية القديمة، التي تكلم بها إبراهيم الخليل وبنوه والسيد المسيح في المنطقة التي وجدوا وعاشوا فيها قرب بابلون الكلدان على وادي الفرات شرق جبال غامد من شبه جزيرة العرب... فأسماء مثل "وادي طوى" و"طور سيناء" و"موسى" و"يهوه" و"جبل حبيب" و"رفيديم" و"أورشليم".. لا يمكن فهم مدلولاتها من خلال تتبع افتراضات المستشرقين الأجانب، بل بالعودة إلى اللغة العربية القديمة التي كشفت لنا حقيقة الأشياء ومسمياتها كما هي بعيداً عن أي تخمين أو تزوير فرض على لغتنا من الخارج"<sup>[٣]</sup>.

على نفس المنوال، وبطريقته الخاصة يعبر "أحمد الدبش" عن منهجه اللغوي لفك طلاس الأسماء التوراتية، قائلاً:

- 
- [١]. زياد منى: جغرافية التوراة - مصر وبنو إسرائيل في عسير، مرجع سابق، ص ٣١.  
 [٢]. صقر أبو فخر: التوراة العربية وأورشليم اليمينية، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد (٧)، العدد (٢٧)، صيف ١٩٩٦. ص ٢٣٥.  
 [٣]. أحمد داوود: العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، مرجع سابق، ص ١٣.

"وقد عمدت الى إجراء مقارنة وتقاطعات بين النصوص التوراتية والقرآنية، حول المقصود بـ "مصر"، "مدين"، "دور سينين"، "الوادي المقدس/ طوى" .. وغيرها من المفاهيم، حيث لا يمكن فهم مدلولاتها إلا بالعودة الى اللغة العربية والمعاجم العربية"<sup>[١]</sup>.

في نفس الشأن، وحول منهجه في فك طلاسم ذلك التشابه بين الأسماء التوراتية والأسماء الواقعة في الجغرافية اليمنية، يقول فاضل الربيعي:

"لقد عكفت على دراسة وتعلم اللغة العبرية ليتسنى لي قراءة النصوص الأصلية - لا الاستشراقية. ثم كرست سنواتاً من عمري للبحث عن جذورها الحقيقية، وللتعرف على ذلك التماثل المثير حتى في أشكال رسم الأسماء في اللهجات اليمنية القديمة والعبرية"<sup>[٢]</sup>.

بالعودة الى محاولة "أحمد الدبش" لتوضيح عملية التزوير التي قام بها المستشرقون على أسماء المناطق في فلسطين بهدف جعلها مطابقة لما في التوراة، يمكن أن نتعرف على نوعية النتائج التي يمكن أن نصل إليها من خلال تطبيق هذه الأدوات اللفظية أو اللغوية كما يحب أن يصفها المستشرقين ورواد نظريتنا هذه عن جغرافية التوراة من بعدهم، ولكن في السياق الذي تتضح فيه بعض النتائج التي توصل إليها المستشرقان "ادوارد روبنسون وإيلي سميث"، والتي يصفها الدبش بأنها ضمن عملية تزوير، إذ يقول:

"زور "روبنسون" عشرات المواقع القديمة بمساعدة "سميث" الذي وضع أثناء عمله مبشراً قائمة بالأسماء العربية لقري فلسطين. فقرية (عناتا)، لم تكن فيما يبدو، إلا (عنتوت) الكتابية (التوراتية)، مسقط رأس النبي إرميا، و(جباع) كانت هي (جبعة) إحدى مدن بنيامين، و(مخماس) بدت مناسبة تماماً لساحة معركة شاول في

[١]. أحمد الدبش: موسى وفرعون في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ١٦.

[٢]. فاضل الربيعي: فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم، المجلد الأول، مرجع سابق، ص

(مخماس)؛ و(بيتن) كانت (بيت إيل) محطة توقف إبراهيم وموقع حلم يعقوب الشهير؛ ومما لا شك فيه أن (الجب) كانت هي (جبعون) الكتابية حيث قام يوشع بتجميد الشمس في مكانها.

وبحسب كلام روبنسون فيما بعد، فقد قادتهم هذه المنهجية عبر مشاهد مرتبطة بالعديد من الأسماء والأحداث والأفعال التاريخية مثل إبراهيم ويعقوب، وسليمان وشاؤول، ويونان، وداود، وصموئيل ومكنتهم من تحديد الأماكن التي عاشوا ونشطوا فيها، واستطاعوا أن يتعقبوا ما يمكن اعتباره خطواتهم ذاتها<sup>[١]</sup>.

بالإضافة الى كوننا عرفنا الآن من أين جاءت هذه النظرية وما هو أصلها وفصلها، فإننا يجب أن نتساءل:

أليست النتائج التي توصل إليها روبنسون وسميث من حيث الأساس والمنهج والأدوات، تشبه النتائج نفسها التي توصل إليها الصليبي وديب ومنى وعيد وداود والدبش والربيعي؟- إذا كان الأمر كذلك، فكيف توصف نتائج روبنسون وسميث على أنها تزوير فيما يصف كل هؤلاء نتائجهم المماثلة بأنها حقائق وتصحيح للتاريخ؟!

من أجل أن نتبين الأمر، يجب أن ننظر الى الفارق بين ما قام به روبنسون وسميث عام ١٨٣٨، وبين ما قام به الصليبي ومن جاء بعده في العصر الراهن. فقد قام روبنسون وسميث بدراسة أساسها أن التوراة تحدد بالضبط جغرافيتها وهي فلسطين، وأن التوراة ذكرت الكثير من أسماء القرى والتلال والجبال والمعالم الجغرافية ولربما حددت مواقعها بشكل أو بآخر، سواء بالنسبة لبعضها البعض أو بالنسبة للأحداث التي جرت فيها، وقاما بالنزول الى الأرض والتجول فيها والتحقق من أسماء المناطق ومدى تطابق أسماءها التي كانت في زمن إجراء الدراسة، مع الأسماء التي ترد في التوراة، فوجدوا أن قرية اسمها "عناتا" تقع في نفس الموضع الذي يرد في التوراة اسم هذه القرية "عنتوت"، وكذلك وجدوا قرية "جباغ" في موضع تسميه التوراة "جبعة"، ووجدوا "مخماس" هي نفسها "مخماس"، وبيسان" التي هي "باشان"،

[١]. أحمد الدبش: كنعان وملوك بني اسرائيل في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص ٨ - ٩.

وغزة التي هي غزة، وأريحا التي هي أريحا وعسقلان التي عسقلون ونهر الأردن الذي هو نهر الأردن.. الخ، وفي المحيط الجغرافي نفسه وجدوا صور وصيدا ولبنان ودمشق وعمان وحماة.. الخ، من المدن والمناطق التي تحددها التوراة.

### فكيف يعد هذا بحق الله تزويراً؟!

بيد أن ما قام به الصليبي ورواد نظريته، هو أنهم أخذوا الفكرة من المستشرقين والمنهج من المستشرقين، وطبقوها في مكاتبهم التي تطل نوافذها على بيروت وكوبنهاجن وامستردام والقاهرة، وهم يبخلقون في المعاجم والقواميس، دون أن يعرفوا شيئاً عن الأماكن التي يتحدثون عنها، ولم يقوموا بأي جهد منهجي عملي وتطبيقي، وأكاد أجزم أن ما من أحد منهم قادر على رسم خريطة لأي مكان على ورقة بيضاء فوق مكتبه..

### فكيف بحق الله لا يعد ما فعلوه تزويراً؟!

أترك الحكم لكم اعزائي القراء..

على وعد باللقاء على نفس المحك قريباً في الجزء الثاني من هذا البحث..